مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

الكتابة التاريخية في العصر الموحدي
البيذق أنموذجًا

عماد تبهوت
باحث دكتوراه
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – مكناس
جامعة مولاي إسماعيل – المملكة المغربية

مُلَخّص

تُعَدّ عملية تدوين الأخبار وفق منهج كلاسيكي، ركز على تتبع تاريخ الحضارة الإنسانية منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا، إحدى أقدم صور الكتابة التاريخية. والتي ساهمت في بناء المعرفة التاريخية. وعرفت الكتابة التاريخية تطورات عدة، وذلك للتطورات التي عرفها علم التاريخ سواء من حيث المنهج أو من حيث المواضيع التاريخية التي اهتم بها. وهذا ما ولد لدى الباحثين المهتمين بتاريخ التأريخ الرغبة في تتبع تطور الكتابة التاريخية منذ بداية التدوين إلى الزمن الراهن. والتجربة المغربية في مسألة إنتاج المعرفة التاريخية كانت غنية جدًا، من ناحية تعدد الكتابات التي ألفت عن تاريخ الدولة المغربية خاصة في مرحلة العصر الوسيط. مما يدعو إلى ضرورة رصد تطور الكتابة التاريخية في المغرب خلال هذا العصر. من هذا المنطلق تقدم هذه المورقة موضوع الكتابة التاريخية في المغرب خلال العصر الموحدي، كمحاولة للوقوف عند السميات التي ميزت الكتابة التاريخية الموحدية. مع التركيز على ما ألفه أبو بكر الصنهاجي الملقب بالبيذق –"أخبار المهدي ..." و"المقتبس ..."–، لكونه أول مَنْ أرخ للبدايات الأولى للدعوة والدولة الموحدتين في المغرب، كما أنه كان من المؤرخين المعاصرين أو مشاركين في صناعة الأحداث وكان من المقربين من ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٧ مارس ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٢٩ أبريل ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

منهج البحث التاريخي؛ الكتابة التاريخية؛ العصر الموحدي؛ البيذق؛ الدولة الموحدية

معرّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.279390.1114

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عماد تبهوت. "الكتابة التاريخية في العصر الموحدي: البيذق أنموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الخامس والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٤. ص ١٠٦ – ١١٨.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Corresponding author: tabohout96@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةٌ

تُعَدّ عملية تدوين الأخبار وفق منهج كلاسيكي، ركز على تتبع تاريخ الحضارة الإنسانية منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا، إحدى أقدم صور الكتابة التاريخية. والتي ساهمت في بناء المعرفة التاريخية. وعرفت الكتابة التاريخية تطورات عدة، وذلك للتطورات التي عرفها علم التاريخ سواء من حيث المنهج أو من حيث المواضيع التاريخية التي اهتم بها[1]. وهذا ما ولد لدى الباحثين المهتمين بتاريخ التأريخ الرغبة في تتبع تطور الكتابة التاريخية منذ بداية التدوين إلى الزمن الراهن.

والتجربة المغربية في مسألة إنتاج المعرفة التاريخية كانت غنية جدا، من ناحية تعدد الكتابات التي ألفت عن تاريخ الدولة المغربية خاصة في مرحلة العصر الوسيط[2]. مما يدعو إلى ضرورة رصد تطور الكتابة التاريخية في المغرب خلال هذا العصر. وفي هذا الصدد ستتناول هذه الورقة موضوع الكتابة التاريخية في العصر الموحدي. حيث يجد الباحث في تاريخ المغرب الوسيط صعوبات كثيرة في العثور على مصادر موحدية تؤرخ للبدايات الأولى للدعوة والدولة الموحديتين في المغرب، ونخص هنا بالذكر المصادر التاريخية الموحدية الأولى التي كان مؤلفوها معاصرين أو مشاركين في صناعة الأحداث. وتعتبر هذه المؤلفات من المصادر المفقودة. وما وصلنا من مصادر عن هذه المرحلة، على قلتها، نجد ما خلفه أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيذق، حيث إنه هو الآخر لم تسلم كتاباته من الضياع، مما أدى إلى بتر جزء مما دونه.

لكن وعلى الرغم من ضياع جزء مما خلفه البيذق عن تاريخ الحركة الموحدية، والأيديولوجية التومرتية. إلا أن الباحث في هذه المرحلة من تاريخ المغرب، يجد نفسه أمام مُؤَلَّفَين نادرين تناول فيهما صاحبهما المرحلة الأولى من تاريخ الدولة الموحدية. خاصةً وأن البيذق ممن شاركوا في صناعة الأحداث التي أوردها في كتاباته، وكان من المقربين من ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي، وهذا ما يجعلنا نتساءل عن المنهج الذي اتبعه البيذق في إعادة بنائه للأحداث؟ وما الدوافع التي دفعت البيذق إلى كتابة تاريخ الحركة التومرتية وبداية نشأة الدولة الموحدية؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية، ستتناول هذه الورقة ملامح الكتابة التاريخية في عصر الموحدين، من أجل معرفة مكانة كتابات البيذق ضمن ما أُلِّفَ من مصادر تاريخية، ومدى أهميتها للباحثين في تاريخ الوسيط عامة، والدولة الموحدية خاصة. ومن ثم تتبع سيرة البيذق ومعرفة شخصيته كما ستتناول آثار الأيديولوجية الموحدية في كتابات البيذق. وكذلك أبرز القضايا التي شغلت مفكرة البيذق، وتختتم هذه الورقة موضوع الكتابة التاريخية عند البيذق بدراسة منهجه في تناول الأخبار، والخلفية التاريخية أو المفكرة التاريخية التي من خلالها انطلق البيذق في إعادة بنائه للأحداث التاريخية التي أوردها.

أولاً: معالم الكتابة التاريخية في المغرب خلال العصر الموحدي (ق ٦ و٧ هـ)

مع مطلع القرن (السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) ظهر الموحدون كقوة سياسية جديدة على ساحة الحكم بالمغرب (٥١٥ – ٦٦٨هـ /١١٢١- ١٢٦٩م)، في ظل التقلبات والاضطرابات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عرفتها بلاد المغرب، خاصة في الفترة التي سبقت وصول الدولة الموحدية إلى الحكم، واستمرار صراعهم مع المرابطين وأتباعهم حتى بعد سقوط دولتهم، وتوسيع نفوذهم السياسي، وما رافقها من توسع جغرافي، ليشمل بلاد المغرب، كما استطاعت الدولة الموحدية الحفاظ على الأندلس.

في خضم هذه الصراعات السياسية والحروب التي كانت الدولة الموحدية طرفًا رئيسيًا فيها، سواء مع سابقيهم (المرابطين) أو لاحقيهم (المرينيين)، عرف العصر الموحدي نهضة علمية وفكرية، حيث ازدهرت عندهم المعارف، بداية من الدعوة الموحدية حيث كان المهدي بن تومرت إما الموحدين، من العلماء العارفين الذين يجتمع عندهم وجوه الناس، ويشير صاحب المعجب إلى أنه "... لما نزل (بن تومرت) اجتمع إليه وجوه المصامدة، فشرع في تدريس العلم والدعاء إلى الخير، [...] وألف لهم عقيدته بلسانهم، وكان أفصح

أهل زمانه في ذلك اللسان، ... ثم صنف لهم تصانيف في العلم، منها كتاب سماه (أعز ما يطلب) وعقائد في أصول الدين ..."[٣]، وهذا الازدهار استمر مع مؤسس الدولة الموحدية عبد المؤمن بن علي الذي "كان مُؤْثِرًا لأهل العلم، محبا لهم، محسنا إليهم، يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده ويجري عليهم الأرزاق الواسعة، ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم ..."[٤] وهذا الاهتمام الذي خصه السلاطين الموحدون للعلوم والعلماء، كان له دور في انتشار العلماء في عصرهم، كالفيلسوف ابن رشد -الحفيد- وابن زهر الأندلسي، ثم العالم والفيلسوف أبي بكر محمد بن عبد الملك ابن طفيل، وما خلفه هؤلاء وغيرهم من علماء عصرهم من إنتاج معرفي يصعب إحصاؤه.

إضافة إلى هذا الازدهار العلمي الذي عرفه العصر الموحدي، عرف التدوين التاريخي هو الآخر ازدهارا وانتشارا على نطاق واسع في الدولة الموحدية، ويظهر هذا الانتشار في وفرة الكتابات التاريخية التي تم تدوينها في المغرب والأندلس خلال العصر الموحدي، ومن هذه الكتابات التي اهتمت بتدوين وتخليد الآثار الموحدي نجد:

كتاب "أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين"[٥] وكتاب " المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب"، لأبي بكر بن علي الصنهاجي (البيذق)، وهذان الكتابان هم العمود الفقري لهذه الدراسة، وسنعرف بهم في محلهم.

كتاب "تاريخ المن بالإمامة" لابن صاحب الصلاة أبي مروان عبد المالك بن محمد الباجي الأندلسي المتوفى عام ٥٩٤هـ/١١٩٨م، ويتكون هذا الكتاب من ثلاثة أقسام، ضاع منها قسمان (الأول والثالث)، وتبقى منها القسم الثاني، الذي أرخ فيه صاحبه للدولة الموحدية والأندلس بداية من عام ٥٥٤هـ أي من عهد عبد المؤمن بن علي وصولا لعهد ابنه يوسف الأول بن عبد المؤمن، أورد فيه تفاصل عن الحياة الاقتصادية والمنشآت المعمارية، وعن الأنظمة الموحدية، والحياة الفكرية والأدبية والدينة خلال الفترة المشار إليها، كما أورد فيه بعض القصائد الشعرية أندلسية ومغربية، مع بعض التراجم.[٦]

كتاب "نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان" لمؤلفه حسن بن علي بن محمد الكتاني المعروف بابن القطان، توفي في النصف الثاني من المائة الهجرية السابعة، جمع فيه أخبارَ ثلاث وثلاثين سنة من تاريخ الدولة الموحدية والأندلسية (من سنة ٥٠١ إلى ٥٣٣هـ)، إضافة إلى تناوله جزءًا من تاريخ الشرق العربي.[٧]

كتاب "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" لصاحبه عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي المتوفي سنة ٦٢٥ هـ/ ١٢٢٨م. وهو كتاب ألفه صاحبه بأمر من أحد وزراء الخليفة العباسي لم يذكر اسمه، وكان ذلك في الربع الأول من القرن السابع الهجري، بغية تعَرف أهل المشرق بأحوال أهل المغرب.[٨] ويتكون الكتاب من قسمين رئيسيين: القسم الأول خصصه صاحبه لأخبار الأندلس، بداية بذكر جغرافية شبه الجزيرة، وتاريخ فتحها، ومن ثم انتقل لذكر أخبار ملوكها بداية من ملوك بني أمية ثم أمراء الطوائف وصولا إلى حكم المرابطين حيث ثم توحيد الحكم بين العدوتين المغرب والأندلس. أما القسم الثاني فخصصه المراكشي لذكر تاريخ الدولة التي عاش في كنفها، أي، الدولة الموحدية منذ تأسيسها مع المهدي بن تومرت إلى عهد يوسف الثاني ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م.[٩]

المصادر المفقودة:

- كتاب "المجموع" لمؤرخ مجهول اقتبس منه البيذق في كتابه "أخبار المهدي".[١٠]
- تقييد للقاضي أبي الخطاب سهل بن القاسم زغبوش المكناسي في تاريخ مكناس، وهو أحد مصادر ابن الغازي خلال تأليفه الروض الهتون.[١١]
- رسالة أبي يحيى ابن المعلم الطنجي، وردت عند المقري في النفح الطيب.[١٢]
- كتاب المعرب عن أدب أهل المغرب، ابن اليسع الأندلسي القرطبي.

ثانيًا: ترجمةُ أبي بكر بنِ علي الصنهاجي "البيذق" والتعريف بكتاباته

١/٢-ترجمة أبي بكر بنِ علي الصنهاجي "البيذق"

يجد الباحث عن الشخصيات التاريخية الأولى للدولة الموحدية صعوبة في الوصول إلى معلومات كافية تعرفنا عنها، وعلى رأسها أبو بكر بنُ علي الصنهاجي.

حيث تعرف هذه المصادر شحا في الأخبار التي يمكن من خلالها أن نبني ترجمة وافية لإحدى أهم الشخصيات الموحدية، باعتباره رفيق ابنِ تومرت خلال رحلته المشرقية، وأحد تلاميذه، ورفيق خليفته عبد المؤمن بن علي،[١٣] وأحد مؤرخي دولتهم.

ورغم وفرة كتب التراجم، سواء التي ألفت في العصر الموحدي، أو التي بعده، والتي كانت لها اهتمامات واضحة بأهم الشخصيات الموحدية، فإن أبا بكر بن علي الصنهاجي لم يوجد له ذكر في هذه الكتابات، لذلك لا يمكن للباحث عن هذه الشخصية معرفة نسبه ولا تاريخ ولادته أو مكان نشأته، غير ما ورد في كتابه "أخبار المهدي بن تومر وبداية دولة الموحدين". فلم يصلنا عن البيذق سوى اسمه الذي أورده في كتابه "أخبار المهدي بن تومرت ..." حيث قال "والعبد الفقير أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنا بالبيذق"[١٤].

غير أن تاريخ وفاته يرجح أن يكون في آخر حياة عبد المؤمن بن علي، لكون البيذق توقف في نقله لأخبار الدولة الموحدية على عهده، إذ إن آخر باب ذكره عن السلاطين الموحدين كان "باب ولاية أولاد الخليفة" وكانت بداية خلافتهم في حياة أبيهم عبد المؤمن، كما يرجح أن تكون وفاته على عهد ولاية السلطان يوسف بن عبد المؤمن.

أما فيما يخص أصل أبي بكر بن علي فهناك من الباحثين[١٥] –محمد بن معمر والمنور عواد -من نسبه إلى قبيلة إزناكن التي تقع بالأطلس الصغير، لكون هذه القبيلة متجاورة لقبيلة محمد بن تومرت؛ هرغة، إضافة إلى أن قبيلة ازناكن أو صنهاجة الأطلس الصغير هي القبيلة التي ينتسب إليها أصدقاءُ المهدي أو المقربون منه.

٢/٢-كتبه

خلف البيذق مؤلَفَين إثنين، أو على الأقل هذا ما وصلنا من مؤلفاته، الأول هو كتاب "أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين"، والذي خصصه لتتبع أخبار مهدي الموحدين كما هو ظاهر من عنوان الكتاب. ومن ثم، تناول باقي أخبار قيام الدولة الموحدية ومراحل تطور دعوتهم، من خلال تتبع رحلة المهدي المشرقية، وعودته إلى المغرب، وتدوين أخبار خليفته عبد المؤمن بن علي الكومي.

وهذا الكتاب، نوع من كتب المذكرات، لأن مؤلفه اعتمد على ذاكرته في ذكر الأحداث، لكونه كان شاهدا على جل أو أغلب الأحداث التي ذكرها، كما أنه كان صانعا أو مشاركا في بعضها. والدليل على ذلك قول البيذق في الباب الأول من الكتاب "فلما كان بعض الأيام أمرنا (المهدي) بالأخذ على أنفسنا وقال لنا نتوجه إن شاء الله نحو الغرب ..."[١٦]، وجاء في الباب الثاني "ثم قال لنا الامام المعصوم رضي الله عنه لتأخذوا على أنفسكم غدا إن شاء الله، فلما أصبح خرجنا من القسطنطنة ..."[١٧]، وهكذا استمر في ذكر أخبار المهدي بن تومرت وأخبار خليفته معتمدا على ذاكرته.

وكانت ذاكرة البيذق في تدوينه للأحداث المذكورة قوية جدا، ويتضح ذلك جليا في الأخبار التي نقلها ورتبها ترتيبا كرونولوجيًّا دقيقا، حيث لا يقدم حدثًا عن آخر، رغم أنه لا يذكر تواريخ وقوع الأحداث إلا نادرا، لكن يظهر الترتيب الزمني للأحداث من خلال الأبواب التي أوردها البيذق في كتابه، حيث يمكن لنا ربط التسلسل الزمني بتحركات المهدي وخليفته. ومثال ذلك، نجد أن أول باب أورده البيذق في ذكره لأخبار المهدي هو باب دخوله إلى تونس عائدا من رحلته المشرقية[١٨]، فيما جاء في الباب الثاني خبر دخول ابن تومرت إلى قسنطينة[١٩]، أما الباب الثالث فخصصه لذكر أخبار دخول المهدي إلى مدينة بجاية[٢٠]، ثم بابا في خروج المهدي نحو الغرب متجها نحو المغرب[٢١]، إلى آخر الأخبار التي ذكرها في الكتاب.

والخاصية المشتركة بين الأبواب التي ذكرها البيذق، هو التتابع الجغرافي للمناطق التي قطعها المهدي في رحلته من المشرق عائدا إلى المغرب، بداية من تونس وصولا إلى المغرب، ومنه نستنتج أن الأخبار التي ذكرها أبو بكر بن علي الصنهاجي، مرتبة ترتيبا زمنيا موافقا للترتيب الجغرافي في ذكره للأخبار، متأثرا في ذلك بكتب المسالك التي كانت منتشرة في عهده، وهي عبارة عن كرونولوجيا تاريخ تأسيس الدولة الموحدية إن صح التعبير.

وبالإضافة إلى أن كتاب "أخبار المهدي"، من المذكرات، فهو يتأطر ضمن كتب السيرة الغيرية، وهذا ما يشير إليه الشق الأول من عنوان الكتاب "أخبار المهدي بن تومرت"، حيث نقل فيه المؤلِف الحياة الشخصية للمهدي بن تومرت بدقة كبيرة جدا، ويتضح هذا كذلك في بداية الكتاب، حيث يشير البيذق في الباب الأول إلى حياة إمامهم لما دخل تونس، يقول "وكان طلبتها يأتون إلى الإمام رضي الله عنه يأخذون عنه العلم، فلما كان بعد خمسة عشر يوما صلا الظهر يوم الجمعة، فلما صليت الفريضة صلا على الجنازة ..."[٢٢]، وهذا مثال على التفاصيل الدقيقة من حياة المهدي التي أوردها المؤلِف، في القسم الأول من كتابه، المخصص لهذه الشخصية الملهمة للعنصر الموحدي. ثم إن كتاب "أخبار المهدي ..." هو كتاب في التاريخ السياسي، وهذا ما يحيلنا عليه الشق الثاني من عنوان الكتاب "بداية دولة الموحدين"، لكون الكتاب خصصه صاحبه لرصد بداية بناء مشروع الموحدين السياسي في المغرب.

أما الكتاب الثاني لأبي بكر بن علي الصنهاجي، فهو "المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب". وهو نبذة مختصرة من الكتاب الأصلي المسمى ب"كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب"، الذي يعد من الكتب المفقودة، ويذكر الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في تقديمه ل"كتاب المقتبس" أن "المؤلفات التي كتبت عن تاريخ المغرب قبل قيام الدولة الموحدية مفقودة أو في حكم المفقود، [...] وحتى الكتب التي ألفت على عهد الدولة الموحدية كاد أن يشملها ما شمل سابقتها [...] وكتاب الأنساب في معرفة الأصحاب لأبي بن علي الصنهاجي المكنا بالبيذق هو واحد من هاذه المؤلفات العديدة التي كتبت على عهد الدولة الموحدية ثم عفا عنها الزمان فمحا رسومها وطمس معالمها وفج بعد العين بأثارها".[٢٣]

ورغم فقدان كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، إلا أن الباحثين في التاريخ الموحدي لم يحرموا من الاطلاع على مقتبسه، الذي أُختصر فيه البيذق الكتاب الأصلي، ولم يعرف الدافع الذي جعل المؤلف يختصر هذا كتاب، وذلك لضياع جزء من مقدمة كتب "المقتبس" والتي من المفروض أن يكون البيذق قد ذكر فيها الأسباب التي كانت وراء اختصار الكتاب الأصلي. وتم العثور على هذا المقتبس من قبل المستعرب الفرنسي ليفي بروفينصال في مكتبة ديِرسان لورانثييو بمدينة الأسكوريال القريبة من مدريد.[٢٤]

ويعتبر كتاب المقتبس من كتب الأنساب والتراجم، حيث يظهر من خلال عنوانه -كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب-، وفصوله، أن البيذق خصص كتابه هذا للتعريف بالمهدي بن تومرت وأصحابه المقربين، وهذا ما يحويه الكتاب. لكن البيذق في مقدمته للكتاب أشار إلى الدافع الذي كان وراء تأليفه له، ولخصه في قوله "إنما الفائدة فيه -يقصد كتاب الأنساب- تعريف القبائل بعضها ببعض لقوله تعالى (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا)".[٢٥]

ثالثًا: أهمية كتب البيذق

يكتسي الكتابان اللذان ألفهما البيذق "أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين" و"المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب"، أهمية كبيرة ضمن الكتابات التاريخية الموحدية لعدة اعتبارات، منها: أن المؤلف عاصر بدايات الدعوة وقيام الدولة الموحديتين، كما أنه كان قريبا من الشخصيات المؤسسة، حيث كان رفيق المهدي في رحلته المشرقية، وتلميذَه، أخذ العلم منه. وبعد وفاة المهدي كان زميلا ومرافقا لخليفته عبد المؤمن بن علي. إضافة إلى هذا فالكتابان كانا من الكتابات الأولى التي ألفت في العصر الموحدي، وأرخت له.

كما أن الكتابين اللذين بين أيدينا، وخاصة كتاب "أخبار المهدي بن تومرت..." يعتبر مصدرا أساسيا لتاريخ الدولة الموحدية خلال فترة قيامها، حيث اعتمده أبناء عصره ومن لاحقهم من المؤرخين كمصدر أساسي في مؤلفاتهم. ومن بين المؤرخين الذين اتخذوا "كتاب أخبار المهدي" مصدرا رئيسيا في تأريخهم للدولة الموحدية، ابن القطان، في كاتبه "نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان"، الذي نقل عنه بعض أخبار الحركة الموحدية، خاصة المرتبطة بالمهدي بن تومرت ورحلته المشرقية، وإن كان ابن القطان أكثر تفصيلا في ذكر أخبار المهدي باعتماده عن مصادر أخرى.

إضافة إلى ابن القطان، نجد ابن عذاري المراكشي صاحب "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" قد أخذ عن البيذق أخبار المهدي في مواضيع كثيرة، والأخبار المرتبطة بخليفته عبد المؤمن بن علي. إضافة إلى مؤرخين آخرين كما أشار إلى ذلك الأستاذ الحسين بولقطيب بقوله "وتبدو أهمية الكتاب خصوصا إذا علمنا أن أربعة من رواد تاريخ المغرب الوسيط استقوا منه معلوماتهم حول دولة الموحدين، وهؤلاء ابن القطان وابن عذاري وصاحب (الحلل الموشية) وابن خلدون"[٢٦]

ويكتسي كتابَا البيذق أهمية كبيرة من الناحية التاريخية، فما أورده البيذق من أخبار عن دولة الموحدين لا غنى عنها، لانفراده أولا بأحداث تاريخية لم تورد عند غيره من المؤرخين أبناء جيله، خاصة تلك التي أوردها في كتابه "أخبار المهدي"، كون هذه الأخبار تمتاز بالدقة والتفصيل، وفيها من السذاجة أحيانا ما يطلعنا على جوانب غامضة من نفسية ابن تومرت وسلوك أنصاره وحقيقة دعوته حسب تعبير الأستاذ لحسن بولقطيب.[٢٧]

ورغم الأهمية التاريخية لكتابي البيذق، فإنه ينبغي التعامل معهما بحذر لكون المؤلف من المتحيزين للدعوة الموحدية، وهذا يظهر جليا في كثرة إعجابه بقائد الحركة، وخليفته عبد المؤمن، "حيث ينسب إلى الأول أفعالا تنم عن مبالغات واضحة كقوله إن إمامه واصفا الأمير المرابطي عليّ بن يوسف أثناء مناظرة مراكش بالجارية المنقبة"[٢٨]، ومن ثم يبني البيذق للقب "المعصوم" الذي أطلق على المهدي في كتابيه، حيث لم يذكر عنده محمد بن تومرت إلا باسم المهدي أو المعصوم. وهنا نتساءل، كيف للبيدق أن يذكر مساوئ وأخطاء شخص معصوم؟

رابعًا: البيذق بين الموضوعية والانحياز لقادة الدولة الموحدية

لا يمكن لدارس كتابي البيذق، عدم ملاحظة انحياز البيذق الدعوة للتومرتية. وهذا يجعلنا نتساءل هل يمكن اعتبار كتابات البيذق وسيلة من وسائل الدعاية للفكر التومرتي والأيديولوجيا الموحدية؟

وللإجابة عن هذا السؤال يتوجب علينا استخراج وإحصاء المصطلحات المفتاحية التي من خلالها نتوصل إلى مدى انحياز البيذق للفكر الموحدي، مع التركيز على كتاب "أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين".

	الألقاب	العدد
الدعاية للقائد الروحي للدولة الموحدية "المهدي بن تومرت"	المعصوم	١٥٥
	الإمام	٤٣
إعطاء المشروعية لخلافة عبد المؤمن بن علي	الخليفة	١٥٥
	أمير المؤمنين	٤٤

ويتضح من خلال الجدول أعلاه، مدى انحياز البيذق للمشروع الموحدي في كتاب "أخبار المهدي بن تومرت وبداية الدولة الموحدية" للبيذق. ويظهر هذا الانحياز في نقطتين أساسيتين:

الأولى: الدعاية لقائد الدعوة الموحدية، حيث ركز البيذق على شخصية بن تومرت بكونها الركيزة الأساسية في تأسيس الفكر الموحدي، حيث لم يذكر المؤلف ابن تومرت إلا مع لقب المعصوم أو الإمام إضافة إلى ألقاب أخرى خصها لابن تومرت. واستعملت هذه الألقاب كنوع من الدعاية أولا للمذهب التومرتي، وإظهارًا لصحة هذا المذهب لكون صاحبه معصومًا من الخطأ، وإمامَ أتباعه، تيمنا بالمذهب الشيعي. وثانيا يظهر لنا اقتناع المؤلف بأفكار ابن تومرت لكونه رفيقا له وأحد تلاميذه، لذلك كان انحيازه للأيديولوجية الموحدية ظاهرا في كتابيه. إضافة إلى تكرار الألقاب التي وصف بها البيذقُ ابنَ تومرت في كل موضع ذكر فيه اسمه، نجد أن أبا بكر قد خصه كذلك بالكرامات والخوارق التي

تظهر مدى مكانة شخصية ابن تومرت في مفكرة البيذق.

ثانيًا: انحياز لمشروع قيام الدولة الموحدية مع عبد المؤمن بن علي، وذلك أن البيذق وعلى غرار ما خص به ابنَ تومرت، نجده قد أسقطه على خليفته، فما ذكر البيذق اسم عبد المؤمن إلا ووسمه بلقب الخليفة أو أمير المؤمنين، محاولا إثبات أحقيته في خلافة المهدي بعد وفاته. وبدأ البيذق بذكر لقب الخليفة وأمير المؤمنين منذ أول خبر ذُكر فيه، حيث جاء في نص البيذق "وذلك أن الحق تبارك وتعالا أزعج أمير المؤمنين الخليفة عبد المؤمن بن علي رضي الله عنه".[٢٩]

وبذلك نستنتج أن منهج التكرار الذي اتبعه البيذق في إشارته إلى شخصية ابن تومرت وعبد المؤمن، كان لغرض رئيسي، والذي تجلى في الدعاية لفكر ابن تومرت والدعوة الموحدية، إضافة إلى ترسيخ أحقية عبد المؤمن بن علي في خلافته للمهدي كما يشير إلى ذلك البيذق بقوله "فلم يزل يدنو من الإمام والمعصوم يقربه (عبد المؤمن) حتى دنى منه، فقال له المعصوم ما اسمك يا فتا؟ فقال له عبد المؤمن فقال له المعصوم وأبوك علي؟ فقال نعم [...] فقال له يا شاب من أين إقبالك؟ قال له من تلمسان، من ساحل كومية، فقال له المعصوم من تاجزرا أم لا؟ فقال له نعم ..."[٣٠] واسترسل البيذق في ذكر اللقاء الأول بين ابن تومرت وخليفته إلى أن وصل إلى قوله "أسمعه يقول (ابن تومرت) لا يقوم الأمر الذي فيه حياة الدين إلا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين"[٣١]. وبذلك يكون البيذق قد أشار إلى إيمان ابن تومرت بولاية عبد المؤمن بن علي على الموحدين وقائد دولتهم. وللإشارة فالبيذق أورد هذا الخبر في موضع يسبق دخول ابن تومرت وخليفته إلى المغرب وقبل مبايعته في تنملل وتأسيس دولتهم.

خامسًا: القضايا التي عالجها البيذق

٥/١-مضمون الكتابين

(١/٥) ١-كتاب "أخبار المهدي وبداية دولة الموحدين"

يتضح من خلال عنوان الكتاب "أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين" المضمون العام للكتاب، والذي تناول فيه البيذق في قسمين، أخبار المهدي بن تومرت في رحلته المشرقية، ومن ثَمَّ أخبار بداية الدولة الموحدية خلال مرحلة التأسيس.

ففي القسم الأول قام البيذق بتتبع أخبار المهدي بن تومرت خلال عودته من رحلته المشرقية إلى المغرب، محاولا تقديم صورة واضحة عن تنقلاته والأماكن التي مر منها أو أقام فيها، أو بمعنى أدق أورد البيذق في القسم الأول من كتابه الخطوات الأولى للدعوة الموحدية، من تونس، يقول عن دخول المهدي إليها "فلما صليت الفريضة صلاَّ على الجنازة فنظر الإمام إلى جنازة من وراء الناس فقال لهم لم لا تصلون على هذه الجنازة، قالوا له هو يهودي وكان يصلي فقال لهم [...] افيكم من يشهد له بالصلاة؟ فقال الناس نعم [...] ثم أمر من يقيم الصفوف وصلا عليه [...] فلما صلا دعا بالفقهاء ووبخهم وعرفهم بالسنة وبين لهم الكتاب العزيز فقالوا له بعد أن عرفوا الحق جهلنا يا فقيه"[٣٢].

وهكذا استرسل البيذق في ذكر أخبار المهدي وحركته الدعوية بداية من تونس ومرورا بمدن الجزائر والمغرب الأقصى، حيث أورد أبواباً خاصة لكل منطقة أو مدينة دخلها المهدي أو خرج منها، ومثالا على ذلك نجد "باب دخول المعصوم إلى مكناس" و"باب خروج المعصوم من مكناس" -والأمثلة في هذا الجانب كثيرة- إلى أن وصل إلى مراكش عاصمة المرابطين، ومنها إلى تنملل حيث تمت مبايعته، "ثم بعد ذلك رحل إلى تنملل فبايعوه بها وذلك تحت شجرة الخروب ..."[٣٣]. إضافة إلى ذكره لعملية التمييز التي قام بها المهدي قبل وفاته، لتمييز أتباعه عن غيرهم.

أما بخصوص القسم الثاني من الكتاب، والذي يشمل على ما تبقى من الأبواب التي ذكرها المؤلف، والتي تناول فيها أخبار قيام الدولة الموحدية مع مؤسسها الفعلي عبد المؤمن بن علي، وصولا إلى ولاية ابنه يوسف بن عبد المؤمن. بداية من بيعة عبد المؤمن بن علي وفتوحاته في بلاد المغرب، وأهم الغزوات التي قام بها المقربون منه، كعمر أصناج، والبشير الونشريسي. ثم انتقل البيذق إلى ذكر عملية الاعتراف التي قام بها عبد المؤمن بن علي، والتي تم فيها القضاء على الآلاف من معارضي النظام الموحدي، وهي من الوقائع التي تفرد البيذق بذكرها. إضافة إلى القسمين السابقين، اختتم البيذق كتابه هذا

"أخبار المهدي" بقسم ثالث ذكر فيه الثائرين على النظام الموحدي في المغرب والأندلس. كما ذكر بعض أخبار يوسف بن عبد المؤمن وحركته الجهادية في الأندلس ضد المرابطين الذين كانوا يدافعون على ما تبقى لهم من الأراضي فيها. وفي ختام هذا الكتاب وردت وثيقة تلخص أهم أحداث الدعوة الموحدية خلال عهد ابن تومرت دون ذكر اسم صاحبها، ويفترض أنها لناسخ الكتاب.

(١/٥) ٢-كتاب "المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب"

خصص البيذق كتاب "المقتبس للتعريف بالمهدي بن تومرت والمقربين منه. وبدأه بذكر نسب إمام الموحدين محمد بن تومرت، ثم انتقل لذكر نسب أصحابه المقربين كعبد المؤمن بن علي وأهل داره -أمه وإخوته وقرابته-، والبشير الونشريسي، وأصحاب المهدي ببلاد مصر. كما ترجم البيذق لأهل الخمسين، واختتم هذا الكتاب بالإشارة إلى واقعة تمييز الموحدين التي أشرف عليها المهدي بن تومرت.

٢/٥-القضايا

تعددت القضايا التي أوردها البيذق في كتابيه، بداية من قضية العصمة والإمامة والكرامات التي اختص بها مهدي الموحدين. إضافة إلى قضية نشأة الدولة الموحدية، وصراعهم مع قادة الدولة المرابطية. ومن القضايا التي تناولها الكتاب، قضية العنف حيث تناول كتاب "أخبار المهدي بن تومرت ..." سياسة العنف التي نهجها كل من ابن تومرت وخليفته، والتي تجلت في عملية التمييز والاعتراف، إضافة إلى استعمال العنف للقضاء على الثوار والمعارضين، وهي القضية التي تفرد البيذق بذكرها

(٢/٥) ١-التمييز (٥١٩هـ/١١٢٥م)

سياسة اتخذها المهدي بن تومرت لتمييز أتباعه من معارضيه، ويقول البيذق بخصوص هذه السياسة "فأكرم الله المهدي بدعوة البشير فأمر بالميِّز فكان البشير يُخْرِج المخالفين والمنافقين والخبثاء من الموحدين حتى امتاز الخبيث من الطيب [...] فمات يومئذ من الناس خمس قبائل"[٣٤]. وهكذا تكون سياسية التميز التي اعتمدها ابن تومرت إنما هي عملية إبادة لكل من خالفه وخالف مذهبه.

(٢/٥) ٢- الاعتراف (٥٤٤هـ/١١٤٩م):

سياسة اتخذها عبد المؤمن بن علي، وهي سياسة مشابهة للتمييز، حيث كان الهدف من ورائها معرفة أتباع الخليفة عبد المؤمن بن علي ومن خرج عن طاعته. وهي الأخرى كانت عبارة عن إبادة للعديد من القبائل بأمر من عبد المؤمن بن علي، وجاء في نص البيذق "وكتب الجرائد [...] بالوعظ والاعتراف وقسمها لأشياخ الموحدين وأمرهم بالسيف"[٣٥]. وكان من نتائج هذه السياسة حسب ما أورده البيذق " وضمَّا هزميرة إلى رباطهم وقتلا خمسمئة من أهل التخليط [...] وقتلا منهم من أهل التخليط ثمانمئة في أصاكًّا ن كمات، [...] ودفع جريدة أخرا إلى هسكورة [...] قتلوا منهم ثمانمئة، وغاروا على البقية في قياطينهم، فجاء عددهم ألفين وخمسمئة [...] ثم جند عمر بن ميمون وخرج لتازرقتن يملوان، فقتلهم بموضوع يقال له تيفسرت، وساق غنائمهم ونسائهم إلى تادلا [...] وخرج (أك أنكي) إلى القلعة متاع مهدي بن توالا باعترافهم وقتل منهم ستة آلاف من زناتة فازاز ..."[٣٦].

ومنه نلاحظ مكانة العنف ضمن القضايا التي شغلت مفكرة البيذق في تناوله للوقائع التاريخية في كتاباته. رغم أن الإشارة لقضية العنف في كتابات البيذق لم تكن بشكل مباشر، لكون هذا العنف له ما يبرره، ولم يتخذ كسياسة ضد المخالفين، لكن أُتخذ كسياسة لنشر الأمن والأمان، وإظهار قوة دولتهم في استقرار أوضاع رعيتهم، ويشير البيذق في ذكره للاعتراف إلى الأسباب التي كانت وراء أمر الخليفة عبد المؤمن بن علي شيوخ القبائل بتنفيذ هذا الاعتراف بقوله "وبعد ذالك قتل مكناسة الفحامين في نظر فاس، فأرسل الجياني الكتب للخليفة وهو يقول حصرنا في فاس، فقال له من أي سبب؟ فقال له من أمر مكناسة فانهم قتلوا الفحامين في جبلهم، فخرج الخليفة للموحدين وعمل لهم المجلس ووعظهم وقال لهم الشارب إذا منع اللبن والماء ما جزاؤه؟ فقالوا له يقصَّص، قال أحسنتم فيما قلتم ثم دخل الخليفة وكتب الجرائد لهم بالوعظ والاعتراف وقسمها لأشياخ الموحدين وأمرهم بالسيف".[٣٧]

سادسًا: منهج البيذق في عرضه للمادة التاريخية

تعرض أبو بكر الصنهاجي في عملية التأريخ لقسمين من الأخبار، القسم الأول خص به أخبار المهدي بن تومرت، ونقل سيرته وحركته التوحيدية، ثم قسم ثان خصصه لتناول أخبار بداية ظهور الدولة الموحدية على الساحة السياسية، أي أخبار عهد عبد المؤمن بن علي.

٦/١-منهجه في عرض أخبار محمد بن تومرت

يتضح أن البيذق في عرضه لأخبار المهدي بن تومرت قد اتخذ من الكرونولوجيا التاريخية منهجا في بنائه للأحداث، الذي يعتمد ترتيب الأحداث التاريخية حسب تعاقب السنين، دون تقديم خبر عن أخر. وهو المنهج التاريخي الكلاسيكي الذي اعتمده المؤرخين المغاربة منذ بداية عملية التدوين التاريخي في المغرب. وهذا يتضح في ترتيب الذي اعتمده البيذق في إعادة بنائه للأحداث التي خص بها المهدي بن تومرت في رحلة عودته من المشرق إلى المغرب، كما هو ظاهر في الأبواب التي أوردها، حيث الباب الأول خصص لدخول المهدي إلى تونس، من ثم باب ثاني لدخوله إلى بجاية منها إلى المغرب في أبواب أخرى، وصولا إلى مبايعته في مراكش.

إضافة إلى التوجه الدعوي في كتابي البيذق، من خلال تناوله لشخصية ابن تومرت كظاهرة دينية استوجب الوقوف عندها، ويظهر هذا من خلال التقديس الذي خصه البيذق لشخصية بن تومرت، وما أسقط عليها من الصفات الدينية، بداية بتلقيبه بالمهدي تيمنا بالمذهب المهدوي الذي اتخذه مهدي بن تومرت كركيزة من ركائز قيام حركته التوحيدية. إضافة إلى الإمامة والعصمة، والأمثلة في هذا الباب عديدة وكثيرة كما أشرنا إلى ذلك في محور "آثار الفكر الموحدي في كتابات البيذق". كما نجد أن البيذق خلال تناوله لأخبار الحركة الموحدية، كان تركيزه عن شخصية بن تومرت دون غيرها من الأخبار الأخرى. ومنه نجد أن المنهج الدعوي كان له أثر كبير، أولا في توجه الكتابة التاريخية ككل، ثم في ازدهارها. كما أن البيذق تفرد في استعمال الماضي الدعوي في تأريخه لمرحلة بن تومرت، مقارنة مع أبناء عصره، كصاحب المعجب عبد الواحد المراكشي أو ابن صاحب الصلاة.

٦/٢-منهجه في عرض أخبار بداية دولة الموحدين

على غرار الصورة التي قدم بها البيذق شخصية ابن تومرت، اتبع نفس المنهج في تقديم شخصية عبد المؤمن بن علي، باعتبار الأول إمام الموحدين والثاني خليفته أمير المؤمنين، والمؤسس الفعلي لدولتهم. أما فيما يخص منهج نقل ابن تومرت لأخبار نشأة الدولة الموحدية، فقد اتخذ من الكرونولوجيا التاريخية منهجا في نقله للأخبار، بداية من مبايعة الموحدين لعبد المؤمن مرورا بغزواته وفتوحاته ببلاد المغرب الكبير وما جاورها من البلاد، حيث رتب الأحداث التي أوردها في هذا الجانب ترتيبا زمنيا دقيق، حيث لم يقدم أو يؤخر حدثا أو أخبر عن آخر.

أما فيما يخص المادة المصدرية التي اعتمدها البيذق في بنائه للأخبار وتعليلها، ففي كتاب "أخبار المهدي" اعتمد على ذاكرته. لأنه رافق ابن تومرت في رحلته المشرقية، وساهم في صناعة الوقائع. ولم يذكر البيدق أيَّ مصدرٍ مكتوبٍ، أو رواية شفوية. باستثناء إشارته إلى مصدر لمجهول، وفي نفس الوقت هو مفقود في وقتنا هذا، وهو كتاب المجموع.[٣٨] واستناده إلى الرواية الشفوية، في موضع ذكر فيه وفاة ابن تومرت، بقوله "ومما نقل عن بعض أشياخ الموحدين ..."[٣٩]

فيما أن كتاب "المقتبس" مصادره متنوعة عكس كتابه الأول، حيث نجده قد نقل بعض الأخبار من مصادر أخرى، رغم أنه لا يذكرها إلا نادرا، كقوله "ينقل من يوثق بنقله من قرابته وغيرهم"[٤٠]، ويقول في موضع آخر يذكر فيه قصيدة شعرية في مدح نسب عبد المؤمن بن علي "وإياه عنا غازي بن قيس رحمه الله حين قال بكلام منظوم ..."[٤١] والأمثلة في هذا الباب كثيرة ومتعددة. إضافة إلى اعتماد البيذق للمصادر، نجده قد اعتمد كذلك على الرواية الشفوية، في تدوينه لبعض أخبار من ذكرهم في "المقتبس"، كقوله "وأما ما يروا في نسبه (رضه) ..."[٤٢]، ويشير في موضع آخر" ويذكر أيضًا أن نسبه ..."[٤٣]، وفي الأخير نجد أن كتاب المقتبس اعتمد البيذق في تأليفه ونقل أغلب الأخبار على ذاكرته، والأمثلة في هذا الصدد كثيرة ومتعددة.

إضافة إلى ذلك، تميز كتابًا البيذق ببساطة اللغة المستعملة في بناء الأحداث، حيث كانت لغته بسيطة، إذ لم يكلف البيذق نفسه استعمال لغة رصينة، بل تعتبر اللغة المستعملة في الكتابين، هي خليط بين اللغة الفصحى واللغة العامية، إضافة إلى استعمال اللغة الأمازيغية عندما يستعصي عليه التعبير بالعربية، وكان يشير إليها البيذق باللسان الغربي. ويشير الأستاذ الحسين بولقطيب إلى مسألة بساطة اللغة بقوله "ويتضح من كتابي البيذق أنه لم يكن من الذين نبغوا في ميدان التأليف التاريخي، ولا ممن مارسوا الكتابة قبل تأليف كتابيه، فهو قد ارتكب العديد من الأخطاء النحوية والأسلوبية"[٤٤].

سابعًا: المفكرة التاريخية عند أبي بكر بنِ علي الصنهاجي "البيذق"

كان للفكر الثقافي والسياسي والديني الذي ساد في العصر الذي شهده البيذق أثر كبير على مفكرته التاريخية، والتي كانت العامل الأساسي في بنائه للأحداث التاريخية، وعملية التأليف. ويمكن تحديد هذه العوامل التي سيطرت على المفكرة التاريخية للبيذق في ثلاثة عوامل أساسية وهي:

١/٧-المهدي بن تومرت وعبد المؤمن بن علي محركان للتاريخ:

لا يمكن لقارئ كتابي البيذق -اللذين هما أساس هذه الدراسة- أن لا ينتبه إلى الدور الذي لعبته الشخصيتان المؤسستان للكيان الموحدي في حركية التاريخ وبنائه، إذ ربط أبو بكر بن علي الصنهاجي معظم الأحداث التي ذكرها في كتابيه إما بشخصية المهدي بن تومرت أو بخليفته عبد المؤمن، وإذا كانت الأخبار لا تخص إحدى هاتين الشخصيتين، فكان يربطها بالشخصيات التي كان لها دور في صناعة الحدث، والأمثلة في هذا الصدد كثيرة ومتعددة، لكن يمكن الإشارة إلى البعض منها على سبيل المثال لا الحصر، ويمكن الاقتصار هنا على عناوين الأبواب التي عنون بها البيذق الفقرات التي أوردها في كتابه، ك "باب نذكر فيه دخول المعصوم رضي الله عنه إلى تونس"[٤٥] و "باب نذكر فيه خروج الخليفة للغزو"[٤٦] و"باب نذكر فيه غزاة البشير رضي الله عنه"[٤٧].

وهكذا يكون البيذق قد جعل من الشخصيات البارزة في الدولة الموحدية هي أساس بناء الحدث التاريخي، وهذا الحدث التاريخي لا يتوقف عن جانب معين من حياة هذه الشخصيات، بل يقف عند جوانب عديدة ومختلفة، كالجانب الدعوي الديني والعلمي ثم السياسي والاجتماعي ....، ومثالاً على ذلك أشار البيذق فيما يخص الأحداث التي شارك فيها المهدي بن تومرت، أولا إلى الجانب الدعوي الديني بقوله "فلما صليت الفريضة صلاً على الجنازة فنظر الإمام إلى جنازة من وراء الناس فقال لهم لم لا تصلون على هذه الجنازة، قالوا له هو يهودي وكان يصلي فقال لهم [...] افيكم من يشهد له بالصلاة؟ فقال الناس نعم [...] ثم أمر من يقيم الصفوف وصلا عليه [...] فلما صلا دعا بالفقهاء ووبخهم وعرفهم بالسنة وبين لهم الكتاب العزيز فقالوا له بعد أن عرفوا الحق جهلنا يا فقيه"[٤٨].

أما الجانب العلمي في شخصية ابن تومرت أورد البيذق أن "طلبتها يأتون إلى الإمام رضي الله عنه يأخذون عنه العلم ..."[٤٩]. وكذلك أشار بخصوص الجانب السياسي في شخصية ابن تومرت إلى بيعته بقول "ثم بعد ذلك رحل إلى تنملل فبايعوه بها وذلك تحت شجرة الخروب ..."[٥٠]. ثم في الأخير أشار البيذق إلى الجانب الاجتماعي بتناول أخبار تخص دور محمد بن تومرت في إصلاح المجتمع الموحدي، خاصة في مرحلة الدعوة، حيث أورد في هذا الصدد قوله "فلما كان يوم من الأيام [...] فقال المعصوم أخرجوا وأقطعوا مقارع من شجر التين [...] فقال لنا أخفوا مقارعكم وسرنا معه وما علمنا أين يتوجه حتى وصلنا زقاق بزقالة، قال لنا تفرقوا على الحوانيت، وكانت الحوانيت مملوءة دفوفا وقراقر ومزامير وعيدانا وروطا وأربية وكيتارات فقال لنا المعصوم اكسروا ما وجدتم من اللهو"[٥١]، وهذه كإشارة إلى وضع المجتمع الفاسي وانتشار اللهو والترف، وكذلك إشارة إلى دور ابن تومرن في إصلاح هذا المجتمع.

٢/٧-تاريخ العوارض

رغم اعتماد البيذق على الشخصيات الموحدية البارزة الصانعة للحدث، إلا أن تدوينه للتاريخ لم يخل من تاريخ العوارض أي "مجموعة من الأحداث الطبيعية لا

تذكر إلا مقرونة بآثارها على البشر"[٥٢]. وتعددت الأحداث التاريخية التي أوردها البيذق في كتابيه على كونها عوارض للشخصيات الموحدية الرئيسية، سواء المهدي بن تومرت أو عبد المؤمن بن علي. ومثالا على ذلك أشار البيذق في حديثه عن دخول المهدي بن تومرت إلى منطقة صاء -تاوريرت حاليا-إلى ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية لهذه المنطقة بقوله "فلما دخل صاء نظر النساء مزينات محليات يبعن اللبن"[٥٣]، وهذا الحدث ورد مقرونا بدخول المعصوم إلى المدينة المذكورة، ومن خلاله نستنتج أيضا الحالة الاجتماعية التي تعيشها هذه المدينة، والتي تعرف انحلالا أخلاقيا حسب البيذق، وكذلك فيها إشارة إلى مساهمة النساء في الحياة الاقتصادية لهذه المدينة، وذلك لممارستها تجارة بيع اللبن. والأمثلة في هذا الباب كثيرة ومتعددة.

٣/٧-الآخر في مفكرة البيذق (المرابطين):

وعلى الرغم من أن كتابي البيذق ألفهما للتعريف بالدعوة الموحدية وتاريخ دولتهم، إضافة إلى التعريف بالشخصيات الموحدية المؤثرة، إلا أن الآخر -المرابطين- كان له حيز في التدوين التاريخي عند أبي بكر بن علي، حيث خصص هذا الأخير جزءا من كتابه للإشارة إلى العلاقة التي كانت تجمع الموحدين بالمرابطين، خاصة من ناحية الصراع السياسي بين الدولتين في سبيل السيطرة على زمام الحكم.

وورود المرابطين في المفكرة التاريخية عند البيذق كان تحت تأثير الأيديولوجية الموحدية، وهذا ما يظهره البيذق من خلال وصفهم بالمجسمين في مواضع عديدة، حيث جاء في سياق حديث البيذق عن غزوات ابن تومرت والتي كانت ضد المرابطين، حيث جاء فيما أورده "وذالك أرشدك الله أنه لما بلغه أن جيش المجسمين أتاه يقدمهم سليمان بن يكلَّد ..."[٥٤]. و "... أزعج عمر بن ديان من مراكش، ثم وصل إلى أنسا بجيش كبير فبلغ الخبر للمعصوم، [...] فلما التقا العين بالعين قاتلناهم قتالاً شديدًا [...] وانهزم المجسمون ..."[٥٥].

كما وَرَدَ لقبُ المجسمين بعدما أمر ابن تومرت بتلقيبهم به، كردة فعل بعد تلقيب المرابطين الموحدين بالخوارج، "... فقال الموحدون ما يقولون بعد أن سمع منهم كلاما من عندهم قالوا لقبونا قال وكيف لقبوكم قالوا يقولون خوارج"[٥٦] فرد عليهم ابن تومرت "سبقونا بالقبيح لو كان خيرا أحجموا عنه وما سبقونا إليه لقبوهم أنتم [...] قولوا لهم أيضا المجسمون"[٥٧]. إضافة إلى ذلك فقد خصص البيذق بابًا خاصًا لما أنجزه المرابطون من حصون، "باب نذكر فيه الحصون التي بناها المجسمون ليجعلوا فيها خيلهم ورجالهم ويتحصنون فيها فلم ينقذهم من أمر الله شيء"[٥٨].

ومن هنا نستنتج أن كتابي البيذق ألف تحت تأثير فكري ساد في العصر الموحدي، خاصة في عهد كل من محمد بن تومرت وخلفيته عبد المؤمن بن علي اللذين عاش المؤلف في مرحلة حكمهما، وهذا ما أثر على مفكرته التاريخية في تدوينه لتاريخ الحركة الموحدية وبداية قيام دولتهم. وبذلك نجد أن المفكرة التاريخية عند البيذق قد ارتكزت على ثلاثة أسس رئيسية، وهي ابن تومرت وخليفته إضافة إلى شخصيات بارزة في الدولة الموحدية الأساس في عملية التدوين التاريخي، وكل ما جمعه البيذق من أخبار هي مرتبطة بهم. وكل الأخبار والحوادث غير المرتبط بهذه الشخصيات، أوردها البيذق على شكل تاريخ عوارض، أي كعارض لمرور إحدى هذه الشخصيات أو إقامتها في مكان وقوع الحدث أو الخبر الذي أشار إليه المؤلف في تأليفه.

وفي الأخير نجد لذلك الآخر -المرابطون-بدوره قد أثار مفكرة البيذق خلال عملية التدوين، من خلال علاقة هذا الآخر مع دولة الموحدين، ونلتمس طبيعة هذه العلاقة في الصورة التي أسقطها البيذق على المرابطين، التي كانت من دون شك نتاجًا لتأثير فكري ساد خلال ذلك العصر، ومتداولةً بين من كان يجالسهم البيذق، وهو وصف المرابطين بالمجسمين.

خَاتِمَةٌ

ختامًا، نلاحظ أن التجربة الموحدية في عملية التدوين التاريخي من خلال نموذج البيذق، والذي يعتبر ما أنتجه من معرفة تاريخية بمثابة اللبنة الأولى في تشكيل ملامح الكتابة التاريخية في العصر الموحدي. وكانت الكتابات التاريخية التي أنتجها البيذق في غاية الأهمية، لكون هذا الأخير كان شاهدًا وصانعًا للأحداث التي أوردها في كتابيه، وذلك لمكانته من قادة الدولة الموحدية –مهدي بن تومرت وعبد المؤمن بن علي–، وهذا ما ميز كتابي البيذق عن غيرهما مما ألف في العصر الموحدي.

كما امتازت الكتابة التاريخية عند البيذق بالمنهج البسيط في تناوله للأحداث التاريخية، أولاً بتأثرها بالوضع الفكري العام السائد في المجتمع الموحدي، وذلك بسيطرة الفكر الدعوي على أغلب مجالات الحياة، وهذا ما انعكس بشكل مباشر على مفكرة البيذق، بالدعوة للمهدي بن تومرت قائد التيار الموحدي قبيل تأسيس الكيان السياسي، ولخليفته عبد المؤمن بن علي. إضافة إلى آثار الفكر الدعائي للأيديولوجيا الموحدية في تناول البيذق للآخر –المرابطون.

واستمرت بساطة منهج البيذق في عملية التدوين، لتشمل اللغة التي وظفها البيذق في بنائه للنص التاريخي، إذ أظهرت لغته قلة خبرة البيذق في التأليف التاريخي، وممارسة التأليف بصفة عامة.

الإحالات المرجعية:

(١) بدايتا مع المؤرخين اليونانيين والرومانيين، ومن بعدهم المؤرخين العرب -خاصةً ابن خلدون الذي دعا إلى ضرورة تمحيص الأخبار واستقراء المسببات-، وصولا إلى القرنين التاسع عشر والعشرين، والإضافات التي أضافتها كل من المدرسة الوضعية التي اهتمت بعملية التأريخ ومناهجه. ومن ثم مدرسة الحوليات التي عملت على توسيع حقول المعرفة التاريخية من خلال توسيع مفهوم الوثيقة، وبالانفتاح على العلوم الاجتماعية.

(٢) انظر: المنوني، محمد، **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، منشورات كلية الأدب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس- الرباط، سنة ١٩٨٣م

(٣) عبد الواحد المراكشي، "**المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ضبطه وصححه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ط الأولى، سنة ١٩٤٩م، ص١٨٧ و١٨٨.

(٤) عبد الواحد المراكشي، المعجب ...، ص. ٢٠ و ٢١

(٥) طبع الكتاب في نسختين، الأولى من تقديم الأستاذ عبد بن منصور، ومن منشورات دار المنصور للطباعة والوراقة بالرباط، في طبعته الأولى سنة ١٩٧١م. أما الثانية، تحقيق الأستاذ عبد الحميد حاجيات، ومن منشورات المؤسسة الوطنية للكتاب، بالجزائر سنة ١٩٨٦م.

(٦) محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، ص ٥١

(٧) محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، ص٥٧.

(٨) عبد الواحد المراكشي، **المعجب** ...، ص ٤.

(٩) محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، ص ٥٠.

(١٠) انظر: البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٤٢.

(١١) محمد المنوني، **حضارة الموحدين**، دار توبقال للنشر -الدار البيضاء، ط الأولى ١٩٨٩م، ص ٥٠.

(١٢) محمد المنوني، **حضارة الموحدين**، ص ٥٠.

(١٣) أبو بكر بن على الصنهاجي، **البيذق، أخبار المهدي وبداية دولة الموحدين**، تقديم عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط، سنة ١٩٧١، ص ٥.

(١٤) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٢٣.

(١٥) انظر: المنور عواد ومحمد بن معمر، **الكتابة التاريخية عند البيذق من خلال كتابه أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، مجلة الحوار المتوسطي، المجلد الحادي عشر، العدد ١، ٣١ مارس ٢٠٢٠، ص ص ٦٧-٨٥.

(١٦) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١٢.

(١٧) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١٢.

(١٨) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١١.

(١٩) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١٢.

(٢٠) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١٣.

(٢١) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١٨.

(٢٢) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١٢.

(٢٣) أبو بكر بن علي الصنهاجي البيذق، **المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، سنة ١٩٧١، المقدمة، ص ٦.

(٢٤) البيذق، **المقتبس** ...، ص ٦.

(٢٥) البيذق، **المقتبس** ...، ص ١٢.

(٢٦) الحسين بولقطيب، **المصامدة وقيام دولة الموحدين (٥٠٠-٥٥٨هـ/١١٠٦-١١٦٢م)**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، غير منشورة، السنة الجامعية ١٩٨٩م ص ٥.

(٢٧) الحسين بولقطيب، **المصامدة وقيام دولة الموحدين**، ص ٥.

(٢٨) الحسين بولقطيب، **المصامدة وقيام دولة الموحدين**، ص ٥.

(٢٩) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١٤.

(٣٠) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١٦.

(٣١) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١٦.

(٣٢) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١١.

(٣٣) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٣٤.

(٣٤) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٣٩.

(٣٥) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٧٠.

(٣٦) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٧٠ و٧١.

(٣٧) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٦٩ و ٧٠.

(٣٨)انظر: البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٤٢.

(٣٩) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٤٣.

(٤٠)البيذق، **المقتبس** ...، ص ١٢.

(٤١) البيذق، **المقتبس** ...، ص ١٩.

(٤٢) البيذق، **المقتبس** ...، ص ١٣.

(٤٣) البيذق، **المقتبس** ...، ص ١٣.

(٤٤) الحسين بولقطيب، **المصامدة وقيام دولة الموحدين**، ص ٥.

(٤٥) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١١.

(٤٦) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٤٩.

(٤٧) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٣٩.

(٤٨) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١١.

(٤٩) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١٢.

(٥٠) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٣٤.

(٥١) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ص ٢٣ و٢٤.

(٥٢) عبد الله العروي، **مفهوم التاريخ: الألفاظ والمذاهب، المفاهيم والأصول**، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء، ط الرابعة، ٢٠٠٥، ص ٣٥.

(٥٣) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٢١.

(٥٤) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٣٥.

(٥٥) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٣٧.

(٥٦) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٣٨.

(٥٧) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٣٨.

(٥٨) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٩٠.